معالم القيادة السياسية عند الامام الحسن المجتبى عليه السلام

الباحث
سعد ماجد
الكاظمية المقدسة

المبحث الأول

الاستراتيجية الاصلاحية

تكمن أهمية صلح الإمام الحسن عليه السلام تاريخياً في أنه شكل منعطفاً كبيراً في مسيرة الدولة الإسلامية، وفي أنه أعلن عن بداية مرحلة جديدة في حركة الأمة، وفي أنه أظهر الخط الثاني القائم على أساس تتبع مسيرة الأمة من زاوية المعارضة.

وتكمن الأهمية كذلك من الناحية العلمية في أنه قدم للمسلمين تجربة غنية قامت على أساس التصدي لانحراف اجتماعي خاص.

ولكن ورغم هذه الأهمية فإن الصلح لم يحظ باهتمام كاف من قبل المؤرخين؛ وغالباً ما نجد أن مرورهم على هذا الحدث الهام لم يكن مروراً معمقاً، وتتبعهم له لم يكن كاملاً شاملاً، هذا فضلاً عن أن الروايات التاريخية قد نقلت بعض جوانبه وتركت جوانب أخرى؛ فكونت في النتيجة صورة ذات ملامح متفرقة لا تنمّ عن الحقيقة كاملةً..

من هنا حاولت في هذه الدراسة، بواسطة مسح بعض المصادر التاريخية المهمة، علاج جوانب الخلل في المعالجات السابقة، بالإضافة إلى دراسة الصلح من منطلقات غير عقيدية؛ لأن دراسته من الزاوية العقيدية لها جوابها القاطع القائم على أساس سيرة المعصوم عليه السلام، فاستندنا إلى الدراسة التاريخية لأنها دراسة ذات بعد علمي مرن يفسح المجال للتعامل مع الآخر بصورة أفضل، خصوصاً ذلك الذي لا يؤمن بعصمة الإمام الحسن عليه السلام وإمامته؛ فلهذا اتخذ الباحث المصادر غير

الشيعية تحرزاً من الوقوع في اتهام الآخر له بالتعصب واللاموضوعية.

البلاد الإسلامية:

استناداً للمصادر التاريخية فإنه وفي أواخر عهد عثمان، تفاقم الصراع الداخلي بصورة واضحة؛ مما أدى إلى قتله في النهاية، ولم يتوقف هذا الصراع لكنه اتخذ أشكالاً أخرى من حروب وتمردات عسكرية وصراعات على النفوذ والمواقع استمرت حتى أثرت على تولي الإمام الحسن عليه السلام للخلافة بعد استشهاد أبيه عليه السلام.

ولا نريد هنا دراسة جذور هذا الصراع ولا وضع عثمان، بل الذي نريده هو وصف الحال التي كان عليها المسلمون في فترة تولي الإمام الحسن عليه السلام للخلافة.. ومن الواضح أن البلاد الإسلامية لم تنحصر بالمصرين البصرة والكوفة اللتين مثلتا قلب الأحداث، بل هي أوسع من ذلك، ولذا فإن حدوث أي اختلال في تلك البقاع، من الناحيتين السياسية والاجتماعية، يمكن أن يترك تأثيراً بالغاً على الدولة الحاكمة، ويمكن لنا أن نحدد صورة إجمالية عن أوضاع الأمة - آنذاك - عن طريق ما نقله المؤرخون عنها، حيث يمكن أن نصل إلى أنها كانت داخلة في خضم وضع متأزم ودوران على الذات وعدم اتحاد أفق وولاء فيما بينها.

فقبيل استشهاد الإمام علي عليه السلام أرسل معاوية جيشاً بقيادة بسر بن ارطأة إلى الجزيرة العربية، فقام بارتكاب مجازر في اليمن، كما أن الناس قد اجتمعوا على أبي هريرة في المدينة المنورة وبايعوه، وأن أهل مكة وقعوا في اضطراب وتخبط، ولم يهدأوا إلا تهيباً من جارية بن قدامة السعدي القائد الذي أرسله الإمام علي عليه السلام لمواجهة بسر وما أحدثه من فوضى.

أما بلاد فارس فإن واليها زياد بن أبيه استولى على ما في بيت المال هناك.. وهذا هو حال غير واحد من ولاة البلدان الإسلامية البعيدة.

أما مصر فإن الأمر قد تفاقم فيها بعد أن قتل عمرو بن العاص واليها محمد بن

أبي بكر، واغتيال مالك الأشتر الوالي البديل وهو في الطريق إليها، وغير ذلك من الأحداث.

بويع الإمام الحسن عليه السلام للخلافة بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد كان ذلك بترشيح من قبل قيس بن سعد بن عبادة في أشهر الروايات وفي رواية أخرى عبد الله بن عباس.

ويلفت النظر تأكيد بعض المؤرخين على أن الإمام علياً عليه السلام لم ينص على الحسن عليه السلام، رغم أن هناك قرائن تشير إلى أن المقربين من الإمام علي عليه السلام كانوا قد تحركوا وفق علمهم بوجود النص، كما هو الحال بالنسبة لعبد الله بن عباس وقيس وحجر بن عدي وسليمان بن صرد وآخرين؛ وهذا هو أحد جوانب الغموض الذي يكتنف مصادر التاريخ.

وعندما تسلم الإمام الحسن زمام الخلافة في أعقاب سلسلة أحداث ما قبل عهده، كان أبرزها استشهاد والده الإمام علي عليه السلام الذي أحدث فراغاً في حركة الأمة وتطلعاتها، ورغم كون الإمام الحسن عليه السلام من ناحية المؤهلات الذاتية قادراً على سد الفراغ فإن الأمة لم تلتفت إلى هذه الأهلية في فترة قصيرة؛ ولذا نجد أن الفترة التي حكم فيها الإمام عليه السلام لم تكن طويلة، إضافة إلى أنها شهدت حملة إعلامية قوية ضده من قبل معاوية.

فقصر مدة حكم الإمام الحسن عليه السلام في الخلافة، والإعلام المضاد، وسوء تعامل الأمة مع أهليته - وهي النقاط التي سنفصلها لاحقاً - تسبب في حدوث ضبابية وعدم وضوح رؤية في منظار الأمة لقائدها:

هذا إضافة إلى أن الأحداث التي وقعت قبل الصلح وتلك التي اقترنت معه وبعده، توضح لنا نقطة هامة جداً هي أن الأفق لم يكن متحداً تماماً بين الخليفة وأمته.

ولو استقرأنا الأحداث فإنا سوف نجد:

١- عندما خطب الإمام الحسن بعد بيعته قال: (تسالمون ما سالمت وتحاربون ما حاربت)، وذلك كشرط لقبول تسلم الخلافة، نجد أن المجتمع قد تعامل مع هذا الشرط تعاملاً سلبياً؛ فيرى الطبري أن الأمة ارتابت (لأنه لا يريد الحرب) في حين أن ابن الأثير قد نقل أن ارتياب الأمة كان لأنه أراد الحرب.

٢- إن ابن عباس قد هرب والتحق بمعاوية، والطبري نقل أن الهارب هو عبد الله أما ابن الأثير واليعقوبي فإنهما نقلا أنه عبيد الله، ويضيف اليعقوبي على هذا أن ثمانية آلاف من الجنود قد التحقوا معه بمعاوية.

٣- لقد أشيع في قوات قيس الأمامية أن الإمام الحسن عليه السلام قد صالح، وأشيع في قوات الإمام الحسن عليه السلام مصالحة قيس، رغم عدم حدوث هذا.

٤- في الوقت ذاته أرسل معاوية للاجتماع مع الإمام الحسن عليه السلام جماعة فيهم المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز، وبعد أن خرجوا من الاجتماع أشاعوا في الجيش مصالحة قائدهم رغم أن هذا لم يحدث.

هنا يتوقف اليعقوبي عن سرد الأحداث، وينقل أن الصلح قد أبرم بعدها، فقد وصل إلى قمته وطعن الإمام الحسن، وبوصول معاوية إلى العراق اضطر الإمام عليه السلام للصلح.

٥- يضيف الطبري أن الصلح قد جاء بعد أن أشيع في الجيش مقتل قيس بن سعد.

وإذا ما لاحظنا سلسلة الأحداث هذه فسنرى أن حالة التمرد وعدم الطاعة كانت مبطنة في واقع الأمة و(لا شعورها)، وإن ذلك كان سبباً في الفوضى وتفاقمها..

ولكن ما هو السبب الذي دفع الأمة إلى التمرد على قائدها، وبالصورة المتقدمة؟!.

وللجواب على هذا السؤال، نطرح عدة احتمالات:

أ) أن يكون السبب هو علم الأمة بأن قائدها سيصالح وذلك بحسب تصورها، وهذا الافتراض يقود إلى افتراض آخر هو أن الأمة كانت رافضة لمصالحة معاوية وتريد الحرب معه على أية حال، ولهذا تمردت.

غير أن افتراض مثل هذا الأمر صعب لمن يلاحظ الروايات التاريخية، ومنها رواية ابن الأثير السابقة التي ذكرت ارتياب الأمة لأنها لم ترد الحرب، ورواية أخرى له تذكر أن الأمة عندما خيرها قائدها بين الحرب والسلم اختارت السلم قائلة: (البقية البقية!)، وكذلك رواية ابن أبي الحديد التي تقول إن دعوة الإمام الحسن للناس إلى القتال قد قوبلت بالسكوت وعدم الاستجابة إلا أن تحريض جماعة، منهم عدي بن حاتم، هي التي أدت إلى الاستجابة والموافقة على الحرب.

وكذا ما نقله الطبري من أن قوات قيس الأمامية قد اختارت الدخول في طاعة معاوية بعد أن خيرهم بين الحرب والدخول في طاعته.

وكذلك لو لاحظنا كلمات للإمام علي عليه السلام وهو يخاطب الأمة نفسها التي كانت مع الإمام الحسن عليه السلام لرأينا أن هذا الاحتمال بعيد؛ إذ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء، وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس إلى المعونة وطائفة من العطاء فتفرقون عني وتختلفون علي؟! إنه لا يخرج إليكم من أمري رضى فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه).

ب) إن المجتمع الكوفي كان يرى الإمام الحسن عليه السلام غير قادر على الحرب، لكنه راغب بالقضاء على معاوية وغير قادر على تحمل مسؤولية ذلك، وذلك للإرهاق والتعب الذي أصابه من جراء حروب ثلاث في سنوات أربع.

من هنا نجد أن الإمام الحسن وعندما جاءه حجر رافضاً الصلح - كما يروى - خاطبه قائلاً: (يا حجر ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك).

فالحرب بناء على هذا الاحتمال كانت غير محببة لدى عموم المجتمع المسلم، لأن الأمر ليس أمر إسلام وحسب، وليس مجرد رغبة في القضاء على معاوية، بل هو يشكل لحظة حاسمة هي الحرب التي تحتاج إلى إرادة داخلية صلبة.

من هنا سيكون التمرد حاصلاً من جراء الخوف من الدخول في معركة جديدة لا يريدها الناس، فحصل التمرد كرد فعل للإعداد الذي قام به الإمام الحسن عليه السلام للحرب؛ إذ إن قيام الإمام الحسن عليه السلام بالإعداد للحرب، إضافة إلى الأحداث التي عاصرت عملية الإعداد هذه، من قبيل الإعلام المضاد والارتباك الذي حصل في القوات الأمامية بسبب هروب ابن عباس، وقيام بعض أعداء الإمام عليه السلام بإشاعة الفوضى داخل الجيش وغير ذلك من الأمور قد أدت إلى وقوع التمرد.

ج) إن الأمة لم تكن تريد استمرار الإمام الحسن عليه السلام؛ وهذا خوفاً من استمرار السياسة الداخلية للإمام علي عليه السلام القائمة على أساس العدل والحزم وتطبيق الحدود، وخوفاً من استمرار السياسة الخارجية له القائمة على أساس تطهير البلاد من ولاة السوء، السياسة التي تحتاج إلى الحروب خصوصاً مع معاوية.

هذه ثلاثة احتمالات حول قضية التمرد، والذي يبدو هنا - وفقاً لهذه الاحتمالات - أن ذلك المجتمع كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصنف الذي كان يريد الحرب ضد معاوية راغباً بها، وطالباً لها، ورافضاً مصالحته.

القسم الثاني: الصنف الذي كان يريد الإمام الحسن عليه السلام ويرغب فيه وفي القضاء على معاوية، ولكن حالة الخوف والإرهاق من الحروب أدت إلى عدم ثباتهم؛ بناءً على التفسير المتقدم في الاحتمال الثاني، هذا الصنف كان يمثل عامة أهل الكوفة.

والقرينة على حب الناس للإمام الحسن عليه السلام هي أنه عندما خطب في المسجد

خطبته الوداعية لأهل الكوفة وحينما أراد العودة إلى المدينة، تعاملوا مع هذا الموقف بحزن شديد، فيقول ابن الأثير والطبري أنه قد بكى كل من في المسجد حتى لم يبق أحد إلا وسمع نحيبه

لكن هذا الحب أمر آخر لا يعني الثبات وعدم الخوف، فكم من أمة خذلت قائدها رغم حبها له، وكم من أمة قتلت رجالها وهي تعرف حقهم تمام المعرفة.

القسم الثالث: الصنف الذي كان معادياً للحسن أصلاً أو رافضاً لبقائه، وهو موقف القليل من أهل الكوفة، لكن تأثيرهم كان كبيراً.

ثانياً: لماذا الصلح؟!!

هناك عدة نقاط جوهرية يمكن أن تشكل مجتمعة السبب الأبرز لاختيار الإمام الحسن عليه السلام الصلح، فالملاحظ - بناءً على ما تقدم من روايات تاريخية - هو أن حالة الفوضى واللا استقرار الاجتماعي والسياسي كانت سائدة في البلاد الواقعة تحت حكم الخلافة المركزية في الكوفة، كالبصرة ومكة والمدينة واليمن وفارس ومصر وغيرها من البقاع، هذا بخلاف الشام الواقعة تحت حكم معاوية، ومن الواضح أن لعدم الاستقرار في بلاد الخلافة الشرعية أسبابه الممتدة إلى عهد سابق وهو عهد عثمان، في حين أن الاستقرار في الشام يعود إلى وحدة الحكومة عبر سنوات؛ إذ الحكم هناك كان من نوع واحد وعلى سياق واحد لعقود ثلاثة.

والملاحظ كذلك أن الأمة بدأت تميل إلى الدعة والراحة وتخاف الحرب لأنها شهدت حروباً ثلاث في غضون أربعة أعوام، وكانت إضافة إلى تلك الحروب تعيش في ظل حكم يتميز بالعدالة الصارمة والمساواة التي لم يرض بها كثير من وجوه الأمة المؤثرين، إضافة إلى الحرب الإعلامية التي كان يشنها معاوية منذ اليوم الأول من خلافة الإمام علي عليه السلام والمطالبة بقتلة عثمان كورقة إعلامية، ومروراً بحرب صفين ورفع المصاحف وانتهاءً بإشاعة الخوف في صفوف قوات الإمام الحسن عليه السلام، والإشاعة الكاذبة بأن الإمام الحسن عليه السلام قد صالح قبل الصلح بفترة.

هذا إضافة إلى أن الثقل الأكبر ممن كان يعتمد عليهم الإمام علي عليه السلام في صراعه ضد معاوية لم يكن موجوداً في عهد الإمام الحسن عليه السلام، ومن الواضح أن وجود هكذا رجال يلعب دوراً بارزاً في مثل هذا الصراع.

هذه الأمور تكشف عن أن الظروف لم تكن في صالح الحرب؛ فاحتمال الانتصار العسكري كان أضعف الاحتمالين في مثل هذه الحالة، ويمكن أن نستشف هذا المعنى من قول الإمام الحسن عليه السلام لسليمان بن الصرد: (فوالله لو سرنا إليهم بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن وقوع الهزيمة في معركة كهذه هو أقوى الاحتمالات، ويمكن أن يكون له تداعيات خطيرة وانعكاسات سلبية:

أولاً: إن الهزيمة ستؤدي إلى تهديم البنية الداخلية التي شادها الإمام علي عليه السلام في الكوفة، حيث أن ما قام به كان حصيلة جهد سنوات قليلة من الحكم، ولم تكن هذه السنوات سنيناً طبيعية إنما كانت سنين حرب يحكمها اللااستقرار الاجتماعي، فجهود في مثل هذه الظروف وفي مدة قصيرة مهما كانت كبيرة، لا يمكن أن تكون منتجة لبنية واسعة الإطار، فجهوده عليه السلام كانت قد أنتجت ما يمكن أن تنتجه في مثل هذه الحالة، فخرج منها ثلة من الناس معدة بصورة جيدة.

فلو حصلت الهزيمة العسكرية لقضي على هذه الثلة، التي كانت تتجمع في قوات الإمام الحسن عليه السلام.

هذا المعنى نجده في أكثر من كلام للإمام الحسن عليه السلام، فعندما لامه سليمان بن صرد الخزاعي، خاطبه قائلاً: (وأما قولك يا مذل المؤمنين، فوالله لأن تذلوا وتعانوا أحب إليّ من أن تغروا وتقتلوا) ويوم خاطب حجر - وقد كان مريداً للحرب مع معاوية -: (يا حجر ليس كل الناس تحب ما تحب ولا رأيهم كرأيك، وما فعلت إلا إبقاءً عليك)

ثانياً: إن الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على وفاة النبي صلى الله عليه وآله كانا يمثلان المركز المحوري الذي يربط الأمة بالدين، وهذا لا يشك به أحد، فكل الشخصيات الأخرى من ناحية المؤهلات الذاتية لم تكن قادرة على أداء ما أدياه، والهزيمة ستؤدي إلى القضاء عليهما معاً؛ لأن معاوية لا يتركهما إذا انتصر، مما سيؤدي إلى ترك الأمة بدون مركزية دينية قوية.

ثالثاً: إن خلو الساحة لمعاوية - الأمر الذي سيصدر عن الحرب - يعني إبقاءه بدون رادع، مما يعني تعريض الإسلام من الناحيتين النظرية والتطبيقية لتحريف كامل، في حين أن الصلح قد أفسح المجال أمام شخصيات تردع معاوية، حيث تصدى طيلة فترة حكمه وما بعدها أشخاص لسياسته وتصرفاته؛ فقد تصدى الإمام الحسن عليه السلام نفسه مراراً لسب الإمام علي عليه السلام، وكذا حجر وعمرو بن الحمق الخزاعي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر والأحنف بن قيس بل وموقف أهل الكوفة في عهدي المغيرة وزياد وكذلك البصرة في عهد الأخير أو موقف المدينة من تعيين يزيد خليفة، وثورة الإمام الحسين عليه السلام، وثورة المختار، وحركة سليمان بن صرد وغيرها..

رابعاً: كان هناك خطر خارجي كبير محدق على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية، من جهة الرومان الذين كانوا ينوون شن هجومهم على البلاد الإسلامية، فبالحرب ستضعف الدولة الإسلامية وينهار نظام الحكم فيها سواء انتصر الإمام الحسن عليه السلام أم لم ينتصر؛ هذا الأمر سيعطي الرومان حافزاً لأن يعيدوا الكرة على البلاد الإسلامية خصوصاً وأنها تضم القدس الشريف وبقية البلدان التي عاش فيها السيد المسيح عليه السلام.

ثالثاً: أهداف مصيرية.

رغم أن الصلح قد أدى إلى تولي معاوية أمور الحكم وإقصاء الإمام الحسن عليه السلام عنها، إلا أنه قد وفر على الإمام الحسن عليه السلام ما يمكن أن يخسره في حربه، كما تقدم، فقد تكون آلة الرئاسة أكثر فاعلية في الإعداد والتربية، إلا أن هذا لا يعني عدم وجود طرق أخرى فيها الكثير من الفاعلية.

فالإمام علي عليه السلام عندما توقف عن الدخول في صراع مع الآخرين ليسترد الخلافة حفاظاً على الوجود الإسلامي، قد ترك الأمة تختار بنفسها وتكشف الحقائق وحدها حتى عادت إليه وهي مختارة ومقتنعة بكفائته بعد أن ذاقت مرارة تولي غيره أمور الخلافة.

وبنظرة متأملة في صلح الحديبية يتضح لنا، أن في صلح الإمام الحسن أبعاداً تشابه أبعاد ذلك الصلح؛ حيث أن الرسول صلى الله عليه وآله قد أجّل الحرب عشر سنوات وأخر فتحه للبلدان بما في ذلك مكة، ووافق على تأجيل الحرب إلى عام قادم وبدون سلاح، مع أن المشركين اشترطوا عليه إعادة كل هارب منهم.

ولهذا العمل أبعاد منها:

١- إراحة المسلمين من الحرب فترة طويلة إذا التزم المشركون بالصلح.

٢- اختبار المسلمين؛ حيث أبدى جمع منهم رفضهم للصلح.

٣- فضح المشركين؛ فإن بعض المسلمين قد اغتر بما يدعيه المشركون من إرادة السلم.

٤- إعادة إعداد المسلمين؛ حيث أن الإعداد في حال الحرب أقل مستوى منه في حال السلم.

وبملاحظة صلح الإمام الحسن عليه السلام نجد أنه يتشابه في هذه الأبعاد من الناحية الجوهرية؛ فهو يحتوي وبحسب الظاهر على الأبعاد التالية:

أولاً: نقل المسلمين من وضع اللااستقرار المادي والفكري والروحي الناتج عن الحرب إلى حالة الهدوء، حتى لا تشغلهم الحرب عن التفكير في حياتهم وحركتهم ودورهم لفترة ما، وقد يكون الإمام عنى هذا عندما قال: (حتى يستريح بر ويستراح من فاجر).

ثانياً: إيجاد الأرضية المناسبة لزيادة الوعي الديني لدى الجيل الذي ينشأ في فترة اللااستقرار منذ بداية الفتن، وكذا لدى الأفواج التي دخلت الإسلام في تلك الحقبة.

ثالثاً: التصدي لأعمال معاوية، وفضح نواياه وأطماعه، وإبطال إعلامه المضاد؛ مثلاً: عندما عمد إلى سن تلك السنة السيئة بسبه الإمام علي عليه السلام، ورواية الأحاديث المزيفة ضده، والمنع عن رواية فضائله، نجد أكثر من مسلم قد تصدى له، فقد تصدى الإمام الحسن عليه السلام نفسه له وكذلك فعل حجر وعمرو بن الحمق وعبد الله بن عباس وأمثالهم.

ومثلاً: في مسألة تنصيب يزيد لولاية العهد ومن ثم الحكم، نجد مواقفاً واضحة قد اتخذت حتى قبل موت معاوية، من قبل عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر والأحنف بن قيس، بل وموقف أهل المدينة كل هذا، إلى أن انتهى الأمر إلى ثورة الحسين عليه السلام التي زلزلت العرش الأموي. بل إن معاوية قد واجه معارضة من قبل أشخاص لم يكونوا مع الإمام الحسن عليه السلام من أمثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير

رابعاً: إذا نفذ معاوية الشروط المدرجة في الصلح فسيعود الأمر للإمام للحسن أو الحسين عليه السلام، وأما إذا خالفها - وهو ما وقع فعلاً - فإن معاوية سيفتضح، فكثير من الأمة الإسلامية كان جاهلاً أمر معاوية أو أنهم لا يعلمون منه الأمور التي تجعلهم لا يرضون به، أو أنهم كانوا لا يتوقعون منه أن ينزل بهم ظلماً وجوراً سيتمنون معه عودة سيرة الإمام

علي عليه السلام وشدته في الحق وحرصه على إقامة موازين القسط. إن معاوية في فترة حكمه قد عرض نفسه للفضيحة، منذ اليوم الأول وحتى تنصيب يزيد واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وأوضح للأمة بسلوكه وسياسته أن الحرب كانت سبيلاً للقضاء عليه وعلى ظلمه، فقد عرض معاوية المسلمين للظلم والاضطهاد عندما سلط على أهل الكوفة زياداً فقتل منهم الكثير وعندما سلطه على أهل البصرة، حيث أن زياداً قد ترك على أهلها بسر بن ارطأة فقتل وفي أيام قليلة آلافاً وكذلك أهل المدينة عندما نصب عليهم يزيداً وغير ذلك فإن هذه الأعمال شكلت تصوراً جديداً للأمة تمثل في ضرورة القضاء على حكم معاوية وإعادة سيرة الإمام علي عليه السلام.

كما أن سبايا كربلاء عندما دخلوا الشام قد أوجدوا هناك أرضية جيدة لفضح معاوية.

من هنا يلاحظ أن الحسن البصري في وصفه لمعاوية يقول: (أربع خصال كن في معاوية؛ لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة، انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضل، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً.. وادعاؤه زياداً.. وقتله حجراً - ويلاً له من حجر وأصحاب حجر- مرتين) هذا الفهم والإطلاع على حقيقة معاوية لم يكن واضحاً وكاملاً لو لم يتسلم سدة الحكم.

هذا فضلاً عن خطاب معاوية المشهور بعد الصلح في الكوفة حيث روي أنه قال: (إني لم أقاتلكم لتصوموا وتصلوا، بل قاتلتكم لأتأمر عليكم)، وروي كذلك أنه قال: (إن كل شيء أعطيته للحسن تحت قدمي هاتين).

بناءً على هذا فإن الصلح كان ضرورة مرحلية ومقدمة أساسية لإعداد آلية عمل جديدة، قد تنتهي إلى استرداد الحكم أو إلى المنع من تدمير الإسلام، بعد أن

يكون معاوية قد افتضح تماماً ولم يبق أي تشويش في رؤية الأمة. هذا ما يظهر من كلام للإمام الحسن والحسين عليهما السلام مع سليمان بن صرد إذ قالا له: (فإن يهلك - معاوية - ونحن وأنتم أحياء، سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا)

المبحث الثاني

شبهات حول الصلح

أن قرار الإمام الحسن عليه السلام بعقد الصلح مع معاوية والدخول في هدنة يخطط الإمام فيها للمستقبل في انتظار انكشاف أمر معاوية وسقوط الغلاف الديني الزائف الذي يتستر به، كان قراراً صائباً وكان الحل المناسب لتلك الوضعية المعقدة الذي وجد الإمام فيها نفسه وشيعته ورأينا كيف حقق الإمام تقريباً كل الأهداف والدوافع التي دفعته للصلح وأن معاوية وإن كسب بعض الأهداف الآنية لكنه خسر المعركة في المنظور البعيد.

ومع كل التحليلات التي ذكرناها في تفسير الصلح ونقض الفرضيات الباطلة يمكن للباحث أو القارئ أن يطرح إشكالاً آخر يتردد صداه كثيراً: لماذا لم يفعل الحسن مثل ما فعل الحسين؟ لماذا لم يقاتل بالبقية الباقية من جنده المخلصين ليسجل ملحمة فدائية خالدة في التاريخ؟

ويحاول البعض تعليل الظاهرة بان الحسن لم يكن عازما على القتال لأنه منذ البداية كان يميل للسلم فمزاجه منشد للمصالحة أما الحسين فهو رجل ثوري يميل للقتال والاستشهاد ولقد انطبع هذا التصور في أذهان الكثيرين من الباحثين بل بين اتباع الأئمة عليهم السلام لتنتشر مقولات مثل (هذا حسني) وذاك (حسيني) تعبيراً في الأولى عن التوجهات السلمية بل الاستسلامية أحياناً، وفي الثانية عن النفس الاستشهادي الهجومي.

ويفرض تساؤل آخر نفسه في طيات البحث: إذا لم يكن الحسن عازماً على القتال فلماذا قبل الخلافة؟ لماذا يقبل الخلافة في مثل هذه الظروف؟ ألم يكن من

الأفضل أن يرفض الخلافة حتى لا يضطر لهذا الصلح؟

إزاء هذه التساؤلات الأخيرة والشبهات الجديدة لابد من التأكيد على المسائل التالية والاستدلال عليها بما يقطع الشك باليقين:

- المسألة الأولى: عزم الحسن عليه السلام على القتال وعدم تردده البتة.
- المسألة الثانية: مشروعية الصلح في الفقه الإسلامي ورجوع أسلوب التغيير إلى طبيعة الظروف الموضوعية القائمة.
- المسألة الثالثة: وحدة الهدف وتنوع الأداء بين الحسن والحسين عليهما السلام.

أولاً: عزم الحسن عليه السلام على القتال.

من الغريب أن يثير البعض هذه الشبهة حول إصرار الحسن عليه السلام وعزمه على القتال مع كل الأحداث والقرائن التي حفت بالموضوع والتي تؤكد إصرار الحسن عليه السلام على استكمال خطة علي عليه السلام الذي استشهد وهو يعدّ العدّة لمحاربة البغاة معاوية وجنده.

ومن الشواهد التاريخية المؤيدة:

أ) زيادته للمقاتلين؛ فأول شيء قام به الإمام الحسن بعد بيعته أن زاد المقاتلة مائة مائة كما نقلت كتب التاريخ، وقد كان فعل ذلك علي عليه السلام يوم الجمل ولكن الحسن حال الاستخلاف وصار سنة متبعة من قبل الخلفاء بعد ذلك.

وهذه الخطوة تؤكد تشجيعه ودعمه للمقاتلين حتى يندفعوا أكثر في المعارك الآتية، وإلا فمن يعزم على السلام لا مصلحة له في ترغيب النفوس ودفعها للتأهب للقتال.

ب) نص البيعة نفسه؛ حيث اشترط الحسن عليه السلام على المبايعين الذين بايعوه على كتاب الله وسنة رسوله: «إنكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فارتابوا بذلك وقالوا ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا إلا القتال.

لقد توجس المتخاذلون خيفة من العهد الذي فرضه الحسن عليه السلام على المبايعين (بأن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم) وعلموا أنه عازم على الحرب!

ج) قتله الجاسوسين الذين دسّهما معاوية في البصرة والكوفة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور فقد أمر الإمام الحسن باستخراج الجاسوسين وضربت عنقيهما.

د) تهديد معاوية بالحرب؛ فقد كتب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب ابن عبد الله الأزدي كما نقل صاحب شرح النهج ومما جاء في هذا الكتاب:

((وإنما حملني على الكتاب إليك الأعذار فيما بيني وبين الله عز وجلّ في أمرك ولك في ذلك إن فعلت الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل الناس من بيعتي فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك وعند الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين فو الله ما لك خيراً في أن تلقي الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك ليطفئ الله الثائرة بذلك ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين

هـ) عدم خضوعه لوعود معاوية وتهديداته حيث حافظ الإمام الحسن على نسق واحد في مراسلاته لمعاوية، وهو التأكيد على الشرعية ومطالبة معاوية بالكف عن غيه..

وفي آخر مراسلاته لم يشأ أن يدخل في تفاصيل مغالطات معاوية واكتفى بالقول:

((أما بعد فقد وصل إلي كتابك تذكر فيه ما ذكرت فتركت جوابك خشية البغي عليك وبالله أعوذ من ذلك فاتبع الحق تعلم أني من أهله وعلي إثم أن أقول

فأكذب والسلام ولما تحرك معاوية بين لأنصاره ما حصل ((بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك أُخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا ونرى وترون وفي الواقع أن الذي لم يكن عازما على القتال فعلا هو معاوية وإنما حاول أن يحشد هذا الحشد الجرار على تخوم العراق كجزء من خطة متكاملة للضغط على الحسن للقبول بالصلح.

فحشد هذا الجيش كان إحدى الأدوات المؤثرة في فرض الصلح وإلا ففي الواقع اكتفى معاوية بتهديد عسكري لن ينفذه أبدا لسببين: أولهما امتناعه عن إراقة دماء الشاميين على الرغم من ضعف الجيش العراقي وثانيهما تفضيله الاستيلاء على السلطة بطريقة سلمية لكي يحصل على اعتراف كامل ويضمن مستقبل خلافته فبعد نزاع دموي وطويل جدا مولد لأحقاد كثيرة لن يكون من المستحسن أن يرسي خلافته على نصر وبالتالي على دم.

ثانياً: مشروعية الصلح في الفقه الإسلامي.

إن الذين يستشكلون على صلح الحسن بعد كل هذا التحليل لدوافع الصلح وأبعاده ويعتمدون في المناقشة على مرجعية السيرة الحسينية كأنهم يتوهمون بأن الثورة والقتال هي الأسلوب الوحيد الذي يقره الدين ويعتمده في التغيير. ويغيب عنهم أنه في إطار الفقه الإسلامي ومرجعية الفكر الإسلامي ليس لدينا أسلوب واحد في والتعاطي مع الأطراف الأخرى: الكفار والبغاة ؛ يقول الشهيد مطهري: أننا لو سئلنا هل الإسلام دين صلح أم دين حرب؟ فبماذا نجيب؟ فإذا رجعنا إلى القرآن نرى تشريع الحرب كما نرى تشريع الصلح فالآيات التي تدعو للحرب مع الكفار والمشركين كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ وغيرها من الآيات كما أن هناك آيات في الصلح كقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ الأنفال: ٦١ وفي آية أخرى ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ النساء: ١٢٨ إذن الإسلام دين أيهما؟ الإسلام لا يجعل الصلح قاعدة في كل الظروف كما أنه لا يقبل الحرب

دائماً بل هما تابعان للظروف والأهداف والمسلمون سواء كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وآله أو في زمن أمير المؤمنين عليه السلام أو في زمن الإمام الحسن أو في زمن الإمام الحسين أو الأئمة الآخرين عليهم السلام أو في زماننا ففي كل زمان وعلى أي حال يجب أن يكون سعيهم لتحقيق الهدف وهدفهم الإسلام وحقوق المسلمين يجب أن يأخذوا الظروف والأوضاع بعين الاعتبار فإن كانوا بالقتال يمكنهم تحقيق الهدف في شكل أفضل فعليهم سلوك هذا الطريق وإذا رأوا أحياناً أن الهدف يمكن تحقيقه بالصلح بشكل أفضل فعليهم اختيار هذا السبيل.

وبمراجعة كلمات الفقهاء نجد اتفاقاً تقريباً على وجوب قتال أهل البغي؛ يقول المحقق الحلي: ((يجب قتال من خرج على إمام عادل إذا ندب إليه الإمام عموما أو خصوصا أو من نصبه الإمام والتأخر عنه كبيرة وإذا قام به من فيه غناء سقط عن الباقين مالم يستنهضه الإمام على التعيين والفرار في حربهم كالفرار في حرب المشركين ويقول الشهيد الثاني في أحكام الباغي: ((وقتاله كقتال الكفار في وجوبه على الكفاية. ووجوب الثبات له وباقي الأحكام السالفة فذو الفئة كأصحاب الجمل ومعاوية يجهز على جريحهم ويتبع مدبرهم ويقتل أسيرهم وغيرهم كالخوارج يفرقون من غير أن يتبع لهم مدبر أو يقتل لهم أسير أو يجهز على جريح. ولا تسبى نساء الفريقين ولا ذراريهم في المشهور ولا تملك أموالهم التي لم يحوها العسكر إجماعاً.

كما ان ترك الحرب مدة معينة وهي جائزة إذا تضمن مصلحة للمسلمين إما لقلتهم عن المقاومة ولما يحصل به الاستظهار أو لرجاء الدخول في الإسلام مع التربص.

ويقول الشهيد الثاني: «وهي جائزة مع المصلحة للمسلمين لقلّتهم أو رجاء إسلامهم مع الصبر أو ما يحصل به الاستظهار ثم مع الجواز قد تجب مع حاجة المسلمين إليها وقد تباح لمجرد المصلحة التي لا تبلغ حد الحاجة ولو انتفت

(المصلحة) انتفت الصحة.

إذن فلا خلاف بين الفقهاء في جواز الصلح سواء مع المشركين والكفار أو مع البغاة والخارجين، وإنما الخلاف بينهم في وصول الأمر إلى الوجوب حيث يذكر العلامة: «أنها ليست واجبة على كل تقدير سواء كان بالمسلمين قوة أو ضعف لكنها جائزة ومرد خلاف العلماء في كون الهدنة مع الكفار أو البغاة حال ضعف المسلمين جائزة. أم تصبح واجبة، هو وجود أدلة لهذا أو لذلك الظرف.

فأدلة عدم إلقاء النفس للتهلكة كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥، يستفاد منها حرمة القتال في حال الضعف وبالتالي وجوب المهادنة كما أن سيرة الرسول انعقدت على مصالحة المشركين كصلح الحديبية.

ولكن بالمقابل قد يتمسك بإطلاق أدلة قتال المشركين ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أو إطلاق قتال أهل البغي: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الحجرات: ٩، للاستدلال على مشروعية القتال حتى في حالة الظن بالهلكة.. وبالتالي لا يصل حكم الصلح والمهادنة إلى الوجوب. كما يستدل في نفي السياق بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله حيث «بعث الرسول تسعة أشخاص إلى بني هذيل وقتل تسعة منهم ولم يستسلموا مع وجود مندوحة لذلك وأقر الرسول سلوك هؤلاء.

ويبدو أن الحل للخروج من هذا الخلاف والتعارض في الأدلة أن نقول كلما كانت مصلحة الهدنة أهم من القتال قدم على الجهاد كما ذهب إلى هذا الرأي السيد الخامنئي في بحثه حول الهدنة: «ثم لا يخفى أن المصالح تختلف أهمية كما أن مصاديق الجهاد تختلف كذلك، ومن المعلوم عدم إمكان التحديد بالنسبة إلى مراتب الأهمية سواء في المصالح أو في عمليات الجهاد في سبيل الله وإنما الأمر في

ذلك أي في تشخيص أهمية المصلحة الداعية إلى الهدنة في كل مورد أو أهمية عملية الجهاد المفروض في ذلك المورد وكذا مراتب الأهمية كلها بيد من إليه أمر الجهاد وبناء على ذلك، أي على فرض وجود مراتب للمصلحة وإن المناط في الانتماء إلى المهادنة في كل مرحلة هو كون المصلحة فيها أهم من العملية الجهادية التي هي موضوع تلك المرحلة فربما وصلت أهمية الصلح والهدوء مرتبة يحكم معها بوجوبه وعدم جواز التخلف عنه.

فالمسألة تدور مدار المصلحة ولقد شخص الإمام الحسن الظرف يفرض الصلح والهدنة فآثر ذلك واثبت التاريخ والتجربة صدق نظره. والأمر شرعاً موكول إليه فهو الإمام الحق. وبيده الجهاد وبيده الصلح..

ولقد احتج الحسن عليه السلام فيما احتج به على أصحابه بهذا الأمر وسيرة الرسول صلى الله عليه وآله مع المشركين وسيرة علي عليه السلام مع البغاة، عن البحار ينقل صاحب صلح الحسن: نصا في هذا الاتجاه عندما يسأله أحد أصحابه ((يا ابن رسول الله لم هادنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وأن معاوية ضال باغ؟ فأجابه: يا أبا سعيد ألست حجة الله تعالى على خلقه وإماما عليهم بعد أبي؟ قال: بلى قال ألست الذي قال رسول الله لي ولأخي الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟ قال بلى قال فأنا إمام لو قمت وأنا إمام لو قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل)).

ثالثاً: وحدة الهدف وتنوع الأداء بين الحسن والحسين عليهما السلام.

أصل المشكلة والجذر الأساسي لهذه الشبهة الأخيرة والتي نسعى لتأسيس الإطار النظري لدحضها (المتمثل في النقاط الثلاث): وهي المقارنة التي كثيراً ما تتردد بين ثورة الحسين عليه السلام وصلح الحسن عليه السلام وفي أكثر الأحيان تكون نتيجة المقارنة، أن الاختلاف في الأسلوب راجع إلى اختلاف في الشخصيتين ومزاجيهما

وأن الحسن ذو ميول سلمية بينما الحسين له نزوع للجهاد والاستشهاد!!

ومن هنا يساق أكثر من اعتراض لماذا صالح الأول... وثار الثاني؟ لماذا هذا الاختلاف في الأسلوب؟ والتناقض في مواجهة الأعداء؟

في الحقيقة هذا الإشكال لا ينحصر في المقارنة بين أسلوب الحسن والحسين وإنما يمتد إلى سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام حين نرى أن أحدهم يركز على العمل السياسي والآخر على نشر الفقه والمعارف والعلوم وثالث على الزهد والدعاء.. الخ فكيف نفسر هذا التنوع؟

والذي قد يوحي بفكرة الاختلاف بين الأئمة عليهم السلام هو المنهج في دراسة سيرة الأئمة عليهم السلام هذا المنهج التجزيئي المهيمن في كل الكتابات تقريبا والذي يتعاطى مع هذه السيرة بطريقة تجزيئية تفصل كل إمام عن الآخر وكل مرحلة عن الأخرى.

ولقد انتقد باقر الصدر هذا المنهج واقترح منهجاً موضوعياً يعتمد على الوحدة الموضوعية لحياة الأئمة ويكشف الخيوط الرفيعة التي تشد حياة كل إمام إلى الإمام الآخر، ويهتم بالأهداف التخطيطية المشتركة التي يلتقي حولها أكثر من إمام. فإذا قمنا بدراسة أحوال الأئمة عليهم السلام على المستويين التجزيئي والترابطي فسوف نواجه على المستوى الأول اختلافاً وتباينا في السلوك وتناقضا من الناحية الشخصية في الأدوار التي مارسها الأئمة وأما على المستوى الثاني «فسوف تزول كل تلك الخلافات والاختلافات والتناقضات لأنها تبدو على هذا المستوى مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة وإنما اختلف التعبير عنها لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام.

ويرى الصدر أن وجود الهدف المشترك للأئمة عليهم السلام ليس مجرد افتراض يبحث عن شواهد تاريخية بل هو مما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها فيجب أن تنعكس انعكاسا واحدا في شروط الأئمة عليهم السلام وأدوارهم مهما اختلفت أدوارها الطارئة بسبب الظروف

والملابسات ويجب أن يشكل الأئمة بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء ليواصل كل جزء من تلك الوحدة الدور للجزء الآخر ويكمله.

وفي ضوء نظرية وحدة الهدف وتنوع أدوار الأئمة لا ننظر إلى موقف الحسن عليه السلام وموقف الحسين عليه السلام على أنهما موقفان متناقضان بل هما موقفان صحيحان فرضت كل واحد منهما ظروفه الآنية ولكنهما يعملان على تحقيق نفس الأهداف المشتركة حفظ الرسالة والدين.. وحماية الأمة من خطر الانحراف الكبير الذي أصابها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله فالحسن لو كان مكان الحسين لثار واستشهد والحسين كان موقفه موقف الحسن ولم يخالفه البتة وما تذكره بعض المصادر من معارضة الحسين عليه السلام للحسن في صلحه مع معاوية كلام يستند إلى روايات ضعيفة لا أساس لها بل تؤكد المصادر التاريخية أن الحسين كان على رأي الحسن عليه السلام فقد قال لعلي بن محمد بن بشير الهمداني حين فاوضه في الثورة بعد أن يئس من استجابة الإمام الحسن: «صدق أبو محمد فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الإنسان (يعني معاوية) حيا. وكان هذا رأيه بعد وفاة الإمام الحسن فقد كتب إليه أهل العراق يسألونه أن يجيبهم إلى الثورة على معاوية ولكنه لم يجبهم إلى ذلك وكتب إليهم أما أخي فأرجو أن يكون الله قد وفقه وسدده فيما يأتي وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك فالصقوا رحمكم الله بالأرض اكمنوا بالبيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً.

وكيف يختلف الحسن والحسين في تقدير الموقف وكلاهما يستقي من معين واحد معين الإمامة والطهر والعصمة؟!

وإنما ينحصر الاختلاف في الظروف: فلكل منهما ظرفه الخاص الذي اختار معه الرأي السديد والموقف الصائب. «وكان احتساء الموت قتلاً في ظرف الحسين والاحتفاظ بالحياة صلحا في ظرف الحسن بما مهدا به عن طريق هاتين الوسيلتين لضمان حياة المبدأ وللبرهان على إدانة الخصوم هو الحل المنطقي الذي لا يعدى

عنه لمشاكل كل من الظرفين وهو الوسيلة الفضلى إلى الله تعالى.

ولنقف قليلاً عند تنوع الظروف لنتفهم أكثر تنوع الأدوار والأداء وفقاً لها:

فالإمام الحسن عليه السلام واجه مرضاً أساسياً في مرحلته وهو مرض الشك هذه الحالة التي واجهها الإمام علي عليه السلام نفسه فالمسلمون في تلك المرحلة لم يفهموا ملياً أن معركة علي مع معاوية كانت معركة الإسلام في صفته الشرعية مع منهج الكسروية والهرقلية المحلاة بقشرة دينية مزيفة يحرص معاوية على المحافظة عليها. إن الأوضاع النفسية التي خلقتها الحروب الطويلة مع الناكثين والقاسطين والمارقين ووقوف وجوه بارزة من صحابة الرسول مع المخالفين أدخل نوعا من الشك في صفوف الموالين لعلي عليه السلام هذه الحالة تعمقت بسبب انتقال الحكم إلى الحسن مما قوى انطباع الناس أن المعركة بين عائلة وأخرى بين بني هاشم وبني أمية وليست بين الإسلام وقوى البغي! خاصة وأن معاوية حينما تصدّى الحسن عليه السلام كان يقف على كيان سياسي قائم اكتسب شرعية ما إثر واقعة التحكيم في صفين.

لم يكن يدرك المسلمون ولا مجتمع الكوفة إلا الخاصة من أصحاب الحسن عليه السلام جوهر المعركة، لقد اعتقدوا أنها خلاف سياسي صرف وأن معاوية حاكم قادر على إدارة شؤون المسلمين وأن تجربته مع أهل الشام أثبتت براعته بل ربما اعتقد البعض بما كان يروج له معاوية بأن الأخير أكثر خبرةً وحنكةً وأكبر سناً وتجربة!

هذا المرض الخطير الذي أصاب الأمة لا ينفع معه العمل الفدائي الاستشهادي لأنه إضافة إلى خطورة القضاء على الخلص من أصحاب الحسن عليه السلام فإن القتال في مثل هذه الظروف لن يكون في منظور هؤلاء سوى معركة مصلحية قادها الحسن من أجل مجد شخصي وموقع سياسي.

إن قيام الحسن عليه السلام بعمل ثوري والدخول في حرب مع ما تبقى من الخلص من أصحابه لن يكون له صدى أكثر من ثورات العلويين في التاريخ.

فالحل الأمثل لمثل هذه الظروف إعطاء فرصة للقاعدة أن تشفى من هذا

المرض والتريث قصد توفر الظروف المناسبة للقتال.

أما الحسين عليه السلام فقد ابتليت الأمة في مرحلته بمرض آخر لقد انكشف لها خداع معاوية وزيف إسلامه ولم تعد تشكك لحظة في طبيعة المعركة بين أهل البيت وبين معاوية ويزيد! لقد كشف صلح الحسن عليه السلام معاوية وفضح سياسات بني أمية على مستوى الأمة الإسلامية (كما اتضح في الفصول السابقة) ولكن المرض الخطير الذي أضحت تعاني منه هو ضعف الإرادة فالأمة قد شفيت من مرض الشك ولكنها منيت بمرض آخر وهو مرض (فقدان الإرادة) وقد أصبحت الأمة لا تملك إرادتها في الرفض والاحتجاج بل أصبحت يدها ولسانها ملك لشهواتها قد فقدت إرادة التغيير لأوضاعها الفاسدة قلوبهم مع الإمام ولكن سيوفهم عليه مع الحسين عليه السلام صار شعار: ((لا نريد إلا حكم علي)) بعد انتفاء روح الشك ولكن الأمة كانت بحاجة إلى صدمة قوية توقظها من رقدتها وتبعث فيها الإرادة من جديد فكانت ملحمة البطولة والشموخ في عاشوراء الحسين عليه السلام.

فصلح الحسن عليه السلام قد مهد لثورة الحسين لأن الصلح قد مكنهم من الوقوف على أخطاءهم في خذلان الحسن والانخداع بالزيف الأموي ((فإذا كان الناس قد كرهوا الحرب لطول معاناتهم لها ورغبوا في السلم انخداعاً بجملة الدعاية التي بثها فيهم عملاء معاوية إذا منوهم بالرخاء والأعطيات الضخمة والدعة والسكينة وطاعة لرغبات زعمائهم القبليين فإن عليهم أن يكتشفوا بأنفسهم مدى الخطأ الذي وقعوا فيه حين ضعفوا عن القيام بتبعات القتال وسمحوا للأماني بأن تخدعهم ولزعمائهم بأن يضلوهم)).

إذن فقد كان دور الحسن أن يهيئ عقول الناس وقلوبهم للثورة على حكم الأمويين هذا الحكم الذي كان يشكل إغراء للعرب في عهد أمير المؤمنين الذي غدا فتنة للعراقيين بعده حملتهم على التخلي عن الإمام الحسن في أحلك الساعات وذلك بأن يدع لهم فرصة اكتشافه بأنفسهم مع التنبيه على ما فيه من مظالم وتعد

لحدود الله فلا معنى للكلام الشائع بين الناس وأحياناً بين المتدينين والمثقفين: عن اتجاه حسني وآخر حسيني فهما وجهان لحقيقة واحدة: الإمامة والمسؤولية.

((وكانت التضحيتان تضحية الحسين بالنفس وتضحية الحسن بالسلطان هما قصارى ما يسمو إليه الزعماء المبدئيون في مواقفهم الإنسانية المجاهدة.

المبحث الثالث

صلح الحسن وخيارات الأمة الراهنة

رغم الصعوبات التي تضعنا تجربة الكتابة عن سيرة الأئمة نواجهها والتي أشرنا إلى بعضها في المقدمة: مشكلة المنهج، قلة المصادر، الاستغراق في البحوث السردية المناقبية وغياب الدراسات التحليلية التي تستنطق النصوص التاريخية لاكتشاف قواعد وضوابط تخدم الأمة في مسيرتها ونهضتها.

كل هذه العوائق لا تمنع البتة من الاستفادة واقتناص الدروس من سيرة الحسن عليه السلام المليئة بالعبر.

وفي مرحلتنا الراهنة؛ والأمة الإسلامية تواجه تحديات هذه الحقبة الخطيرة من تاريخها نحتاج أن نتوقف عند تجارب هؤلاء القادة الربانيين لنستوحي منهم ما يساعدنا على ضبط خطتنا في المواجهة وبرامجنا في الإصلاح ومشروعنا في التغيير ومنهاجنا في العلاقة مع الآخر.

وصلح الإمام الحسن عليه السلام بالذات يؤسس لجملة من القواعد لابد للأمة عموماً والعاملين خصوصا الاستفادة منها:

القاعدة الأولى:

الواقعية السياسية؛ علمنا صلح الحسن أن الإمام المعصوم رغم حضوره ووجوده فإن النصر والتغيير لم يحصل بمعجزه والصراع لم تحسمه الملائكة وإنما (قوانين التاريخ) وسنن الله في الكون هي التي تحرك المسيرة، نعم إن الله ينصر من

ينصره ولكن مع عدم توفر شرائط النصر ومع عدم توفر مقومات الحرب لا مجال للنصر ولا إمكانية للحرب.

لقد علمنا الحسن عليه السلام درساً بليغاً في الواقعية السياسية لن تنساه شيعته أبداً.

القاعدة الثانية:

الصلابة المبدأية؛ يعتذر الكثيرون بـ (الواقعية السياسية) ليميّع أهدافه أو يتحلل من التزاماته.

وصلح الحسن يعلمنا كيف نتعاطى مع الظروف والخصم بواقعية ولكن في كنف الالتزام العالي بالمبادئ بل إن هذه المبادئ هي التي تدفعنا للصلح وهذا ما عناه الباقر عليه السلام ((والله للذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس)) فهذا الصلح حمى دين الأمة ورسالتها وقيمها من الانقراض.

القاعدة الثالثة:

لا مانع من حلول مرحلية عندما تعوزنا الإمكانات فلسنا دائماً في مستوى تحقيق أهدافنا البعيدة، فلا مانع إذا هادن المرء مؤقتاً أو صالح ولا بأس من تجرّع مرارة التنازلات أحياناً في سبيل حفظ الأهداف الكبيرة.

القاعدة الرابعة:

الإسلام وأهدافه العليا هي (الإستراتيجية) فلا حرب دائمة ولا هدنة أبدية الحرب والجهاد والهدنة والسلم كلها خطط مؤقتة لخدمة الهدف الكبير.

القاعدة الخامسة:

لابد من تشخيص دقيق لمرض الأمة وداء المجتمع وفي ضوء ذلك نحدد هل الجهاد والثورة هي الحل أم السكون والهدوء وبالمقابل دراسة وتحليل أهداف الأعداء أيضاً.

القاعدة السادسة:

حفظ الصالحين من أبناء الأمة وطلائعها المجاهدة مقصد هام من مقاصد الدين وإن كان حفظ الدين هو أول المقاصد فإن في حفظ هؤلاء الملتزمين والمؤمنين والمجاهدين حفظ للدين حقاً.. ونرى كيف أن الحسن عليه السلام هادن حفظاً لخلص شيعة آل محمد لأن دونهم لا مجال لحفظ الرسالة.

القاعدة السابعة:

يعلمنا الإمام الحسن عليه السلام أن نمتلك وعيا مستقبليا فلا ننفعل باللحظة التاريخية التي نعيشها ولا نترك الظروف الراهنة الشديدة تسقطنا بل لابد من الانعتاق من ضغط الحاضر التي قد يفرض علينا تنازلات، بالتحديق الواعي للمستقبل والتخطيط له.

الخاتمة:

بناءً على ما تقدم يتسنى لنا أن نعلم بأن الإقدام على الصلح كان يمثل شجاعة نابعة من حكمة في التعامل مع القضية المصيرية التي هي أهم من الحكم نفسه وهي الحفاظ على مسيرة الإسلام وسلامة الأمة من الانحراف، من هنا فإن الوظيفة الشرعية هي التي حكمت على الإمام الحسن عليه السلام بأن يصالح؛ وذلك حفاظاً على تلك القضية المحورية التي لابد أن تكون الحرب كما يكون السلم في خدمتها. وإن من السذاجة اتهام الإمام الحسن عليه السلام بعدم الشجاعة والميل إلى الدعة، لأن القضية لا تدرس فقط من جهة القائد؛ بما أن القيادة علاقة تبادلية طرفاها القائد والأمة، فليس لأحد أن يحكم على القائد إلا بعد أن يدرس الأمة التي حكمها، ولابد من معرفة ما إذا كانت الأمة متحدة أفقاً مع أفق قائدها؛ إذ يلزم أن تتحد إرادتها ومبادؤها ومنطلقاتها وكل ما تتحرك من خلاله مع إرادة ومبادئ ومنطلقات وحركة قائدها؛ وإلا فإن تعرضها لأي محك صعب سيعرضها للفشل.

هذا ما أدركه الإمام الحسن عليه السلام ووعاه، ولقد أدرك أن أمته لم تكن أمة يعتمد عليها عبر تجربة طويلة عاشها معها، امتدت منذ اليوم الأول لحكومة الإمام علي عليه السلام إلى يوم إبرام الصلح. ومثل تلك الآراء لا تعبر عن أي بعد تاريخي، إنما هي آراء تعبر عن وضع نفسي خاص يتعامل مع القضايا بسطحية، كما عبر عنها الإمام علي عليه السلام بقوله: (فإن أقل، يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت، يقولوا: جزع من الموت) كما أن مثل هذه المسائل ليست مسائل ذوق، إنما هي مسؤوليات شرعية ومصير أمة ودين وعقيدة. فالصلح جاء لكي يعيد الأمة إلى نفسها واختيارها، ويدخلها من جديد في إطار تجربتها الذاتية؛ فهو ضرورة لصناعة المناخ اللازم لتحقيق النهوض الجهادي وتجاوز الذات لدى أمة فقدت هذه الاستعدادات.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإرشاد: المفيد، مؤسسة الأعلمي - بيروت ط٣ / ١٩٨٩.

٣- أصول الكافي: الكليني، دار الكتب الإسلامية - طهران.

٤- أعيان الشيعة: محسن الأمين، دار التعارف ١٩٧٦.

٥- أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف: محمد باقر الصدر، دار التعارف.

٦- بحار الأنوار: العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، ط٢ / ١٩٨٣م.

٧- تاريخ الطبري: الطبري، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

٨- تحف العقول: الشيخ الحراني، مؤسسة الأعلمي ط٥ / ١٩٧٤.

٩- ثورة الحسين: محمد حسين شمس الدين، المؤسسة الدولية ط٧ / ١٩٩٦.

١٠- حياة الإمام الحسن بن علي: باقر شريف القرشي، دار البلاغة ط١/١٩٩٣.

١١- دور أئمة أهل البيت في الحياة السياسية: عادل أديب، دار التعارف ١٩٨٨.

١٢- سيرة الأئمة الاثني عشر: هاشم معروف الحسني، دار التعارف ط١/١٩٧٧.

١٣- سيرة الأئمة الأطهار: مرتضى مطهري، دار الهادي ط٢/١٩٩٢.

١٤- شرائع الإسلام: المحقق الحلي، دار الزهراء.

١٥- شرح الروضة البهية: الشهيد الثاني، دار الهادي.

١٦- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

١٧- صلح الحسن: راض آل ياسين، مؤسسة النعمان ١٩٩١.

١٨- الغدير: العلامة الأميني، دار الكتب الإسلامية - طهران.

١٩- الفتنة: هشام جعيط، دار الطليعة - بيروت.

٢٠- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار صادر - بيروت ١٩٦٥.

٢١- مروج الذهب: المسعودي، مطبعة السعادة ط٤/١٩٦٤.

٢٢- كتاب الهدنة: الإمام الخامنئي، دار الوسيلة.